«ما جئتُ أطلبُ أموالكم»

قال ابن إسحاق: ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش ، في الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قَدَرَتْ علىٰ حبسه ، وتفتن من استطاعت من المسلمين ، ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة ـ كما حدّثني بعض أهل العلم ـ عن سعيد بن جبير ، وعن عكرمة مولىٰ ابن عباس ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البختري ابن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ابن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونُبيهُ ومُنبّه ابنا الحجّاج السهميّان ، وأمية بن خلف ، أو من اجتمع منهم.

قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلىٰ محمد فكلّموه وخاصموه حتىٰ تُعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظنّ أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بَداء ، وكان عليهم حريصاً ، يُحبّ رُشدهم ، ويعزُّ عليه عنتُهم ، حتىٰ جلس إليهم.

فقالوا له: يا محمد ، إنّا قد بعثنا إليك لنكلِّمك ، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل علىٰ قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمتَ الآباء ، وعبْتَ الدّين ، وشتمتَ الآلهة ، وسفّهتَ الأحلام ، وفرّقتَ الجماعة ، فما بقي أمرٌ قبيحٌ إلاّ قد جئتهُ فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له ، فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جَمَعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نُسوّدك علينا ، وإن كنتَ تريد به مُلكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً قد غلب عليك ـ وكانوا

يسمُّون التابع من الجن رئيّاً ـ فربما كان ذلك بَذَلْنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه ، أو نُعذر فيك!!

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالكم ولا الشّرف فيكم ، ولا المُلك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليَّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلّغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم»[1].

أجل يا سيدي يا أبا الزهراء:

هم يُفاوضونك علىٰ حُطام الدنيا ومتاعها ، وأنت تُريد لهم السعادة والخير ، وكم كنتَ حريصاً علىٰ أن يتركوا عبادة الأصنام ويتوجّهوا إلىٰ عبادة الواحد الديّان.

ولولا أنك يا حبيب القلب روح الوجود لأخذتَ الأموال ورضيت بالمناصب. . . ، ولكن أنّىٰ يكون ذلك والله قد وصفك بوصف رائع ، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢ ـ ١٠٤].

تالله ما حملتْ أنثىٰ ولا وضعتْ ... مثل النبيّ رسول الرحمة الهادي
ولا مشىٰ فوق ظهر الأرض من أحدٍ ... أوفىٰ بذمّة جارٍ أو بميعادِ
منَ الذي كان نوراً يُستضاء به ... مباركَ الأمر ذا حزمٍ وإرشادِ
مصدّقاً للنبيينَ الأُلىٰ سَلفوا ... وأبذل الناس للمعروف للجاري

نسأل الله تعالىٰ أن يُسعدنا بالدارين برؤية وجه حبيبنا روح الوجود محمد ﷺ ، مع الآل والأصحاب ومن سار علىٰ الدرب إلىٰ يوم الدين.

* * *